١٤ — الفاق الإنسانى مصادره تياراته علاج الدين له — د/ محمد إبراهيم الفيومى .

١٥ — كواشف زيوف فى المذاهب الفكرية المعاصرة - عبد الرحمن حسن الميدانى .

١٦ — لسان العرب — ابن منظور .

١٧ — مبادىء الفلسفة — رابوبرت ، ترجمة أحمد أمين .

١٨ — مختار الصحاح — محمد بن أبى بكر الرازى

١٩ — المعجم الفلسفى — د/ جميل صليبا.

٢٠ — المعجم الوجيز — مجمع اللغة العربية .

٢١ — الموسوعة العربية الميسرة — إشراف محمد شفيق غربال.

٢٢ — الموسوعة الفلسفية — رئيس التحرير د/معن زيادة.

٢٣ — الموسوعة الفلسفية المختصرة — نقلها عن الإنجليزية فؤاد كامل.

٢٤ — نظرات فى الفلسفة الحديثة — د/ أحمد عبده حموده الجمل.

أضواء على حقيقة التوحيد
فى فكر بديع الزمان سعيد النورسى

بقلم

الدكتور

سامى عفيفى حجازى

أستاذ العقيدة والفلسفة المساعد

بكلية أصول الدين

إن القرآن الكريم بجانب دعوته إلى التوحيد قد عرض مقولات الأديان وآراء الملل والنحل والمذاهب التى كانت منتشرة وقت التنزيل، فناقشها، وبرهن على بطلانها وفسادها، وقارن بينها وبين الدين الصحيح الذى هو الحق، والذى أرسلت به الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وعلى هذا فالمتأمل فى قضايا الفكر الإنسانى يقف عـلى أن قضية الألوهية قد شغلت الفكر البشرى منذ وجوده من حيث العقيدة والسلوك، ولم تنقطع السفارة بين السماء والأرض لتقرير هذه القضية وإحقاقها بواسطة رسل الله تعالى من الملائكة والناس. قال تعالى: «الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس»[1] وكان ختم هذه الرسالات برسالة الفرقان الذى أضاء الوجود العقلى والكونى بقدوم نبى الإسلام سيدنا محمد — ﷺ —.

ومن هنا كانت رسالات الأنبياء قاطبة لإيقاظ العقول والقلوب إلى عقيدة التوحيد وترسيخها فى النفس باعتبارها فطرة الله التى فطر الناس عليها قال تعالى: «فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون»[2].

لقد كانت الدعوة إلى وحدانية الله تعالى هى أول الوصايا فى رسالات السماء المبنية على الوحى الإلهى كما أنها الأساس الأول فى الدعوة إلى دين الإسلام مع تنزيهه تعالى عن الأنداد والأضداد.

وهذا هو المنهج الربانى الذى تلقاه المسلمون بالإذعان والتسليم عن رسولهم الأمين وحيا معصوما من قبل رب العالمين.

وبعد ختم النبوات بنبوة سيدنا محمد — ﷺ — قام علماء الإسلام بمهام التصحيح لكل ما يخالف بناء الدين فى ذات المسلم فى دائرتين هما:

التكاليف الإيمانية .

والتكاليف العملية .

وذلك لأن بناء الدين فى ذات المسلم يتمثل فى :

— دائرة العقيدة .

— دائرة الشريعة .

— دائرة الأخلاق .

فالعقيدة أصل يدفع إلى الشريعة ، والشريعة تلبية لانفعال القلب بالعقيدة والأخلاق ثمرة لهما ، وعلى هذا كانت الكلمة الجامعة لرسول الإنسانية : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »(٣) .

وعلماء الإسلام الذين تناولوا قضايا الفكر منذ فجر التاريخ قد كتبوا فى هذا كما تابعهم خلفهم فى استمرار الكتابة ، ولقد كان صاحب مجموعة كليات رسائل النور من العلماء العاملين لتجلية حقائق التوحيد أمام تيارات متعددة كالدهرية وأنصارها وأهل الطبائع ، والصابئة ، والبراهمة ، والثنوية ، التى هبت رياحها من بلاد فارس حيث كان المسلمون يعيشون فيها ، وعقيدة التثليث التى كانت تساكن المسلمين ، واليهود ، وغيرهم من المخالفين .

لقد كان الإمام بديع الزمان سعيد النورسى بثاقب فكره ، وقوة حجته قد غطى معظم قضايا هذا الدين ، وتناولها بالبحث والدراسة والتحليل القائم على الربط بين الشريعة الكونية والشريعة القرآنية فى مؤلفات مجموعة كليات رسائل النور التى تشتمل على غرر الفوائد التى هى للدين قواعد .

ولهذا يخاطب بديع الزمان الإنسان قائلا له : « إن كنت تروم الحصول على علم الحقيقة والحكمة الحقة ، فاظفر بمعرفة الله . إذ حقائق الموجودات كلها إنما هى شعاعات اسم الله الحق ، ومظاهر أسمائه الحسنى وتجليات صفاته الجليلة »(٤) .

وعلى هذا يتضح أن الإمام بديع الزمان سعيد النورسى كان من العلماء الذين لهم منهجهم المتفرد والذى ظل بمعزل عن التعقيدات التى نادى بها السوفسطائيون . ليس هذا فحسب بل يقتضينا المقام أن ننبه هنا إلى أمر هام كثيرا ما كان الإمام النورسى ينبه إليه ويلفت نظر القارىء له فى أكثر من موضع من كليات رسائل النور ، وذلك الأمر الهام باختصار شديد هو — الإنسان — الذى من أجله كان القرآن .

فالقرآن حديث للإنسان أو عن الإنسان ، ولذا يقول بديع الزمان « إذا كان الإنسان هو لب الدنيا الذى تتوجه إليه رسائل النور بمعارفها الشاملة فلأنه كل شىء ومآله الأخروى هو أعظم الأشياء وأكثرها أهمية وخطورة » .

وهذا الأمر الهام يعتبر خاصية منهجية وهدفا من أهداف كل رسالة سماوية ، ذلك أن قضية الألوهية ككل قضية من قضايا الدين المنزل لا يقصد منها تقريرها من الناحية النظرية ، كى يقتنع بها من يسير تحت لوائها أو يفحم من يعارضها أو يحاول التشويش عليها فحسب وإنما يقصد من ورائها بالدرجة الأولى أن تتحول الدعوة إلى كيان حى حتى تعبر عن شخصية أمة الإجابة التى استجابت لرسولها وتابعته على ما جاء به قولا وعملا حتى تشاهد مبادئه وقواعده النظرية فى صورة كائنات محسوسة متحركة ، ولذا يعلن النورسى أن سبب ما يعانيه أفراد المجتمع المسلم من أخطار يكمن فى غياب الوعى الإيمانى وليست هذه دعوى بدون دليل

فقارىء كليات رسائل النور للنورسى وتحليلاته لا يحتاج إلى كبير عناء ليلحظ الربط المحكم والشد الوثيق بين قلب الكون وقلب الإنسان .

ولهذا يخاطب بديع الزمان الإنسان قائلا له كما تبين فيما تقدم « إن كنت تروم الحصول على علم الحقيقة والحكمة فاظفر بمعرفة الله »[٦] كما يشير إلى تفرد الاستدلال القرآنى فيقول : ان أدلة القرآن الكريم على وحدانية الله تعالى أولى وأحكم من أى طريق آخر وذلك لاعتماده فى استنباط وحدانيته تعالى على أصل الفطرة وعلى المشاهدة الذاتية وهى إحدى وسائل المعرفة البدهية ، فطريقة القرآن الكريم هى هداية البشر إلى وحدة الألوهية بعد تقرير ثبوتها بأصل الفطره[٧] قال تعالى : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم أجرا كبيرا »[٨] .

ومن هنا يتيقن دوام العطاء لرسائل النور لدوام مصدرها القرآنى ، وفى هذا المقام يقول الإمام بديع الزمان « ان رسائل النور برهان للقرآن الكريم وتفسير قيم له وهى لمعة براقة من لمعات إعجازه المعنوى ، ورشحة من رشحات ذلك البحر ، وشعاع من تلك الشمس وحقيقة ملهمة من كنز العلم ، وترجمة معنوية نابعة من فيوضاته »[٩] ، كما تناول فى الكلمة الثانية والعشرين اثنى عشر برهانا حول حقيقة التوحيد مشتملة على البراهين العقلية والكونية الكلية والجزئية ويعدها قطرة من بحر التوحيد[١٠] ، كما يتحدث قبل ذلك فى الكلمة السادسة عشرة عن أربع أشعات عن النفس من فيض القرآن الكريم واضعا يد القارىء على حقيقة التوحيد والخلق وكون الصلاة معراجا ورحمة الخالق بالمخلوق[١١] .

كما يتناول فى نفس مجلد الكلمات الحديث عن الوحدانية والأحدية ويدلل بإشارات ورموز وحجج بعضها فوق بعض لدعم ترسيخ الإيمان والربط

بين نوافذه وأزاهيره كما هو فى الكلمة الثالثة والثلاثين[١٢] ، وكما يقول فى اللمعات والمناظرات .

كما تحدث فى مجلد المكتوبات عن حقيقة التوحيد وبيان أهمية الإيمان بالله ومعرفته ومحبته حديثا تقبله الفطرة وتستقيم به النفس[١٣] وأيضا فى مجلد مرشد أهل القرآن إلى حقائق الإيمان[١٤] .

وهكذا فإن علم التوحيد كما قرر ابن خلدون يعنى بالإلهيات فى مقابلة علم الفقه .»[١٥] والنقاش فى هذه العقائد الإيمانية هو الذى كون علم التوحيد .

ونظرا لأن اعتقاد الوحدانية لله عزوجل هى شهادة القبول للدخول فى دين الله تبارك وتعالى — الإسلام — كما أنها عقيدة النجاة فى الآخرة كان من الضرورى بيان معنى التوحيد والوحدانية لله عز وجل والتعريف بها مؤيدة بدليل العقل ونص الشرع .

معنى التوحيد :

يقوم أى معنى من المعانى فى فلك ودائرة اللفظ المطلق له على حسب ما بينهما من رابطة تجمعهما فى الأصل والاشتقاق وعلى هذا فالتوحيد فى عرف أهل اللغة مصدر (وحد) بتشديد الحاء تقول : وحدت الله أعتقدته واحدا ، منفردا بذاته وصفاته وأفعاله بلا نظير ولا شبيه والواحد من صفات الله تعالى معناه أنه لا ثانى له ذو الوحدانية والتوحيد وأنه المنفرد بالإيجاد والتدبير .

فالتوحيد الإيمان بالله وحده والله الأوحد والمتوحد ذو الوحدانية والتوحيد ، وأنه المنفرد بالخلق والتدبير[١١] .

وأما عند علماء الكلام : — فهو إعتقاد أن الله تعالى واحد فى ذاته

وفى صفاته وفى أفعاله ، أى إفراد العابد للمعبود بالعبادة ، وتخصيصه بها ، وقصر إستحقاقها عليه ، فلا يشرك به غيره فيها ... مع إعتقاد وحدته ذاتا وصفات وأفعالا ، فليس هناك ذات تشبه ذاته تعالى ، ولاتقبل ذاته تعالى الانقسام بوجه ما ، لا فعلا ولا وهما ، ولا فرضا مطابقا للواقع ، ولا تشبه صفاته الصفات ، ولا تعدد فيها من جنس واحد بأن تكون له تعالى قدرتان مثلا ولا يدخل أفعاله الاشتراك ، أى ليس لأحد تأثير فى فعل ما ، لا بالاستقلال ولا بغيره ، إذ الأفعال كلها خيرا كانت أو شرا منسوبة له تعالى خلقا وإيجادا ولغيره كسبا وهذا الكسب هو أساس التكليف والثواب والعقاب ولذا قالوا : أن هذا التعريف ينفى كموما خمسة[١٧] وتتمثل فيما يلى :

أولها : الكم المتصل فى الذات على معنى أنه ينتفى أن تكون ذاته تعالى مركبة من أجزاء .

ثانيها : الكم المنفصل فى الذات أيضا ، على معنى أنه ينتفى أن تكون هناك ذات أخرى تشبه ذاته تعالى فليس معه إله آخر .

وهذان الكمان منفيان باعتقاد وحدة ذاته تعالى .

ثالثها : الكم المتصل فى صفاته تعالى ، على معنى أنه ينتفى أن تتعدد صفاته . فليس له تعالى صفتان أو أكثر من جنس واحد كقدرتين وارادتين وعلمين بمعنى أن تكون كل واحدة منهما صالحة للإيجاد والإعدام .

ورابعها : الكم المنفصل فى الصفات ، على معنى أنه ينتفى أن يكون لغيره صفة تشبه صفته تعالى ، كأن يكون لغيره قدرة يوجد بها ويعدم كقدرة الله تعالى ، أو يكون لغيره إرادة تخصص الممكن ببعض مايجوز عليه ، أوعلم محيط بجميع الأشياء .

وهذان الكمان منفيان بوحدة الصفات .

وخامسها : الكم المنفصل فى الأفعال على معنى أنه ينتفى أن يكون لغير الله فعل على سبيل الخلق والإيجاد من تلقاء نفسه دون أن يكون الله تعالى أقدره عليه .

وهذا الكم منفى بوحدة الأفعال[١٨] .

ومن كل ماتقدم يتضح أن وحدة الذات الواجبة له تعالى معناها أنه سبحانه وتعالى ليس جسما مركبا يقبل الانقسام ، وأنه ليس هناك إله غيره ، ووحدة الصفات الواجبة له معناها أنه ليس له صفتان من جنس واحد ، وليس لغيره صفة تشبه صفته .

ووحدة الأفعال معناها أنه ليس لأحد فعل كفعله .

وبعبارة أخرى : أن وحدة الذات تنفى عنه الكم المتصل والكم المنفصل فى الذات ، ووحدة الصفات تنفى عنه الكم المتصل والكم المنفصل فى الصفات ، ووحدة الأفعال تنفى عنه الكم المنفصل فى الأفعال .

وأما فى لسان الشرع :

فالتوحيد هو الإيمان أى الإعتقاد الجازم الذى لا يرقى إليه ريب ولا يخالجه شك بوجود الله تعالى ووحدانيته ، وأنه ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، أى يجب له كل كمال يليق بذاته ويتنزه عن كل نقص .

وهذا المعنى مرتبط بالمعنى اللغوى الذى وقفنا عليه فيما تقدم ، وعلى هذا يتضح أن علم التوحيد يراد منه الدفاع عن عقيدة التوحيد المتلقاة من القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة وهذا المعنى يتمثل فى الدور الإيجابى والدور الدفاعى :

أما الأول : فقائم على إثبات العقيدة بالنقل والعقل .

أما الثانى : فقائم على رد شبهات الحائرين والمخالفين(١٩) .

ومن هنا يمكننا القول أن مقاصد علم التوحيد تتمثل فى :

١ — توضيح العقائد الدينية وما تشتمل عليه .

٢ — الدفاع عنها وتفنيد الشبهات التى يثيرها الخصوم للنجاة من ألوان الشرك الشائع .

٣ — إبطال العقائد المجافية لمنهج الفطرة والتوحيد .

ولذا فمركز التوحيد من الإنسان يعدل مركز القلب من الجسد بالربط بين الشريعة الإيمانية والشريعة الكونية(٢٠) .

والتوحيد بهذا المعنى له بناء يعلن عنه ويدل عليه هو كلمة التوحيد « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

وفى هذا المقام يقول الإمام بديع الزمان سعيد النورسى فى إشارة مختصرة لإثبات التوحيد من حيث الإسم الأعظم .

• الكلمة الأولى : (لا إله إلا الله) .

تتضمن هذه الكلمة توحيد الألوهية وتوحيد المعبودية ، نشير إليهما ببرهان قوى هو : أنه يشاهد على وجه هذا العالم ، ولا سيما على صحيفة الأرض فعالية منتظمة غاية الانتظام .

ونشاهد خلاقية حكيمة فى غاية الحكمة ، ونشاهد بعين اليقين فناحية فى غاية النظام — أى إعطاء كل شىء مايلائمه من شكل وإلباسه مايلائمه من صورة(٢١) .

فهذه المفاتيح الإيمانيه معناها لا معبود بحق إلا الله وهذا الاعتقاد هو أساس الإسلام وحجر الزاوية فيه فمتى استقر هذا المعنى فى النفس ووقر فى القلب دفع إلى الإيمان برسالة سيد الخلق سيدنا محمد — ﷺ . والشهادة له بالنبوة .

ومتى استقر هذا المعنى الثانى فى النفس أستتبع الإيمان بملائكة الله تعالى وبكتبه ورسله واليوم الآخر وما يقع فيه مما دلت عليه النصوص الصحيحة وكذلك أستتبع الإيمان بالقدر كله خيره وشره من الله وبذلك تكون قد إكتملت دعائم الإيمان .

ولهذا يخاطب الإمام بديع الزمان الإنسان قائلا له : « إن الإيمان الذى هو عهدنا بالميثاق الأزلى قد درج فى هذا الكلام المقدس وإن الإسلام الذى هو الماء الباعث على الحياة ، قد نبع من عين حياة هذه الكلمة(٢٢) ثم يقول هذه الكلمة منهاج أزلى ينطق به اللسان ، المبلغ الأمين عن الإيمان بالله الحكيم ... وخطاب فصيح ينشده الوجدان الملىء بالأسرار تجاه الكائنات . ويفسر هذا فيقول : « إن كل ذرة من ذرات الكائنات ، بينما هى مترددة فى إمكانات وإحتمالات غير محددة ، بذاتها وصفاتها وسائر وجودها إذ بها تسلك مسلكا معينا ، وتتجه وجهة مخصصة ، فتنتج مصالح وفوائد تتحير منها الألباب . مما يجعلها تدل على وجوب وجوده سبحانه ، وتشهد شهادة صادقة عليه .

إن وجدان الإنسان لا ينفى الله قط لما غرز فيه من نقطتى الاستمداد والاستناد ، بل حتى لو عطل الدماغ أعماله ، فالوجدان لا ينسى ، لأنه منهمك بتلك الوظيفتين المهمتين كالآتى :

إن قلب الإنسان مثلما ينشر الحياة إلى أرجاء الجسد ، فالعقيدة الحياتية

فى الوجدان — وهى معرفة الله — تنشر الحياة إلى آمال الإنسان كل ما يلائمه هذه نقطة الاستمداد .

ثم إن معرفة الله نقطة إستناد وحيدة للإنسان تجاه تقلبات الحياة ودواماتهـــا ، وتزاحم المصائب وتوالى النكبات ... إذ لو لم يعتقد الإنسان بالخالق الحكيم الذى أمره كله حكمة ونظام ، وأسند الأمور والحوادث إلى المصادفات العمياء . وركن إليها وإلى ما يملكه من قوة هزيلة لا تقاوم شيئاً ، فسينتابه الفزع والرعب وينهار من هول ما يحيط به من بلايا .

وهـذا ما لا يتفق وكمال روح الإنسان المكرم ، إذ يستلزم سقوطه إلى هاوية الذل والمهـــانة ، مما ينافى روح النظام المتقن القائم فى الكون كله .

وهذه هى نقطة الاستناد ... نعم لا ملجأ إلا بمعرفة الله .

فمهما أطبق العقل جفنه ، ومهما أغمض عينيه ، فالفطرة تراه وعيون الوجدان مفتحة دائماً ، والقلب نافذة مفتوحة(٢٣) .

والقارىء للفكر النورسى فى حقائق التوحيد يقف على أنه يتجدد بالإنسانية لإيقاظ منبهات الفطرة والتوحيد ، وبهذا يصبح الإنسان هو الكلمة الأولى والنهائية فى ظل هـذا البيان الإيمانى للإمام بديع الزمان سعيد النورسى فى الجانب الأفقى والرأسى بين الأرض والسماء والذى كان من أجله القرآن الذى هو حديث للإنسان أو عن الإنسان وهذه القضية يدركها من ينظر فى كتاب الله المقروء — القرآن الكريم — كما هى فى كتاب الله المنظور — الكون وما فيه — ولذا فمن خلال الاستقراء لمراجع ومصادر كليات النور فى شمولها لقضايا الفطرة والتوحيد .

تدرك أن هـذه الرسائل بالنسبة للعقل كالنور بالنسبة للعين — كما تبين فيما سبق — فى وصف بديع الزمان لرسائل النور وأنها برهان للقرآن الكريم وليست كالمؤلفات الأخرى التى تستقى معلوماتها من مصادر متعددة من العلوم والفنون ، فلا مصدر لها سوى القرآن ، ولا أستاذ لها إلا القرآن ولا ترجع إلا إلى القرآن ... ولم يكن عند المؤلف أى كتاب آخر حين تأليفها ، فهى ملهمة مباشرة من فيض القرآن الكريم فهى تنزل من سماء القرآن ومن نجوم آياته الكريمة »(٢٤) .

وترى ذلك واضحا فى المقام الثالث من مجموعة الشعاعات من كليات رسائل النور حيث يقول الإمام بديع الزمان « إن الدلائل والحجج والعلامات الدالة على تحقق الوحدانيه ووجودها لا تعد ولا تحصى .

وقـد ذكرت فى « سراج النور » الألوف من تلك البراهين لذا أكتفى فى هذا المقام ببيان مجمل لثلاث حجج كلية فقط .

• العلامة والحجة الأولى ، التى تنتج كلمة « وحده »

• « « الثانية ، « « « « لا شريك له »

• « « الثالثة ، « تشير إليها « له الملك وله الحمد »

فى العلامة والحجة الأولى يشير إلى أن فى كل شىء وحده والوحدة تدل على الواحد وتشير إليه ، ومما لا شك فيه ان الأثر الواحد يصدر من صانع واحد ، فالواحد يصـدر من الواحـد . وحيث ان فى كل شىء وحدة ، فهى تدل على أن الشىء أثر لواحد أحد وصنعته .

ثم يفصل هذا الاجمال بالربط بين العقل والنور فيقول : نعم ان هذا الكون أشبه ما يكون بزهرة مغلفة بألوف من ستائر الوحدة(٢٥) .

أى أن الحكمة الفاعلة فى الكون واحدة والعناية فيه واحدة ، والتنظيم الذى فيه واحد .. والرحمة المغيثة للمحتاجين فيه واحدة والمطر النازل بشرى بين يدى رحمته تعالى واحد .. وكذا الشمس التى تنتشر الدفء . لهذا الكون واحدة ، والقمر الذى يبعث الضياء واحد .. فهذه الآحاد فى العالم حجة باهرة كالشمس الساطعة تدل على الواحد الأحد وتشير إليه .

وهكذا فإن عناصر الكون وأنواعه ، كل منها مع كونها واحدة إلا أن احاطتها بسطح الأرض ودخول بعضها فى البعض الآخر ، وإتحاد بعضها مع البعض الآخر بعلاقات قوية بل بالمعاونة ، علامة ظاهرة بلاشك على أن مالك الكون ومولاه وصانعه واحد أحد »(٢٦).

لقد أوضحت رسائل النور فى أجزائها المتعددة هذا المعنى الذى يقوم على أن الوحدانية والتفرد تجعل كل شىء منتسبا ومستنداً إلى الذات الإلهية الواحدة ويصبح هذا الانتساب والاستناد قوة لا حد لها لذلك الشىء حتى يمكنه أن ينجز من الأعمال الجسيمة ، ويولد من النتائج العظيمة ما يفوق قوته الذاتية ألوف المرات معتمداً على سر ذلك الاستناد والانتساب »(٢٧).

فحينما ننظر إلى بداية كل شىء ونهايته ، ولاسيما فى ذوى الحياة : نرى أن بداياتها وأصولها وجذورها ، وكذا ثمراتها ونتائجها على نمط وطراز بحيث كأن تلك النوى والأصول برامج وفهارس وتعاريف تتضمن جميع أجهزة ذلك الموجود ، وكذا يتجمع فى نتيجة ذلك الموجود وفى ثمرته ، ويترشح فيها معنى ذلك الكائن الحى كله ، فيودع فيها تاريخ حياته . فكأن نواة ذلك الكائن الحى التى هى أصله سجل صغير لدساتير إيجاده ، أما ثمراته فهى فى حكم فهرس لأوامر إيجاده(٢٨) .

وهكذا كلما دققنا النظر فى أول كل موجود وبدايته رأينا مايدل على علم عليم ، وكلما دققنا النظر فى آخره شاهدنا برامج صانع ، وكلما دققنا فى ظاهر الشىء رأينا حلة بديعة فى غاية الاتقان لفاعل مختار مريد ، وكلما نظرنا إلى باطن الشىء شاهدنا جهازا فى غاية الانتظام لصانع قدير(٢٩).

نعم ، إن فى كل مخلوق توجد وحدة ، والوحدة تدل على الواحد .

وهكذا يستند كل شىء إلى قوة عظيمة هائلة تملك مقاليد الكون بأسره ... ومن هنا يستمد كل مخلوق فى الوجود قوته من تلك القوة الإلهية العظيمة المطلقة ... من ذلك « الفرد الأحد » جل وعلا . فلولا الفردية لفقد كل شىء هذه القوة الجبارة « ولسقط إلى العدم وتلاشت نتائجه(٣٠) .

وكل هذا يشير فى وضوح لا لبس فيه إلى أن الوجود كله المنبثق عن الوحدة عابد بطبيعته ، منصاع لأداء وظيفته للواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

أما العلامة الثانية : والحجة البالغة من الدلائل والحجج الدالة على تحقق الوحدانية والتوحيد فتتمثل فى وجود الانتظام الأكمل بلا خلل والانسجام الأجل بلا نقص والميزان العدل الذى لايظلم قطعا ، فى كل شىء فى الكون ابتداء من الذرات إلى المجرات .

نعم ، لايكون الانتظام البديع والميزان الدقيق إلا بالوحدة والتوحيد لأن الأيدى المتعددة إذا ماتدخلت فى فعل واحد فإنها تفسده(٣١).

وفى هذا المقام يخاطب الإمام بديع الزمان — الإنسان — مفصلا له هذا الإجمال وكأن الإنسان هو الكون مصغرا ، والكون هو الإنسان مكبراً فيقول :

«تعال تأمل فى هيبة هذا الانتظام البديع الذى جعل هذا الكون على هيئة قصر عظيم فخم ، فى كل حجر من أحجاره صنعة القصر بكامله ... وجعله مدينة رائعة التنسيق والنظام بحيث تصرف صادراتها غير المحدودة وتأتى وارداتها غير المعدودة وأموالها الثمينة وأرزاقها المتنوعة بانتظام كامل من وراء ستار الغيب ، كل فى وقته المناسب ، ومن حيث لايحتسب وجعله كتابا معجزا بليغا بحيث إن كل حرف فيه يفيد معانى مائة سطر ، وكل سطر فيه يعبر عن معانى مائه صحيفة ، وكل صحيفة فيه تبين معانى مائه باب ، وكل باب فيه يفصح عن معانى مائة كتاب ، ليس هذا فحسب بل إن كلا من أبوابه وصحائفه وسطوره وكلماته وحروفه يشير الواحد منها إلى الآخر ويدل عليه كما يقول : تأمل فى كمال عدالة هذا الميزان ضمن هذا الانتظام بحيث يوزن كل شىء بذلك الميزان ، فالمخلوقات والحيوانات الدقيقة التى لاترى إلا بعد تكبيرها ألف مرة ، وكذا النجوم التى هى أكبر من الأرض بألف مرة ، يوزن كل منها بذلك الميزان ويكال بمكياله فتعطى لتلك المخلوقات كل مايلزمها من حاجيات من غير نقص وقصور حتى تتساوى أمام ذلك الميزان ، ميزان العدالة تلك المخلوقات الصغيرة جدا مع تلك المصنوعات الخارقة فى الضخامة ، علما أن منها ماله تأثير عظيم إلى حد تختل موازنة العالم بفقد موازنته لثانية واحدة من الوقت(٢٣).

وهكذا ينتقل الإمام بديع الزمان بالإنسان عبر المشاهد والعلامات الكونية لتزكية الوجدان الإيمانى الذى يستمد من رؤية هذه الآيات والعلامات مادعا إليه الدين ونادت به الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وأن هذا الابداع الشامل والانسجام المعجز المحيط بكل شىء ، حجة قاطعة على الوحدانيه وبرهان واضح على التوحيد ، أسطع من ضوء الشمس فى رابعة النهار .

ثم يقول : «إن الموجودات تخلق وتظهر إلى الوجود بوجهين :

الأول : الخلق من العدم وهو مايعبر عنه بـ «الابداع والاختراع» :

الثانى : إنشاؤها من عناصر موجودة ، وتركيبها من أشياء حاضرة أى بـ «التركيب والإنشاء»(٢٢) .

كما يفصل الإمام بديع الزمان هذا وذاك فيقول : «فإذا نظرنا إلى الموجودات من زاوية سر الأحدية وتجلى الفردية ، نرى أن خلقها وإيجادها يكون سهلا وهينا إلى حد الوجوب والبداهة ، بينما إن لم يفوض أمر الخلق والإيجاد إلى الفردية والوحدانية ، فستتعقد الأمور وتتشابك وتظهر أمور غير معقولة وغير منطقية إلى حد المحال والامتناع ،

ولذا ينادى بديع الزمان الإنسان قائلا : إنك ترى الموجودات قاطبة تظهر إلى الوجود من دون صعوبة وتكلف ، ومن غير عناء ، وعلى أتم صورة وكيفية ، يثبت لك بداهة إذا تجلى الفردية ، كما يتبين أن كل شىء فى الوجود إنما هو من إبداع الأحد الفرد ذى الجلال والإكرام(٢٤).

إن المتأمل أبعاداً وأعماقا فيما ذكره الإمام بديع الزمان فى العلامة الثانية والحجة البالغة من الدلائل والحجج الدالة على تحقق الوحدانية والتوحيد يرى أنه أمام مركز دائرة تقود الإنسان إلى مراقى الفلاح والسلوك المستقيم كما يتبين له بوضوح حرص الإمام بديع الزمان على أن القرآن الكريم ماترك من دلائل التوحيد شيئا وماتضمنته آية النداء العام لكل البشر «يا أيها الناس أعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم

تعلمون»[٣٥]، وفى معنى هذا النداء يشير صاحب مؤلف إشارات الإعجاز إلى أن هذا استفسار بلسان الحال أكثر التنزيل من ذكره للإيقاظ والتوسم والتنبيه، وهذا الخطاب مؤكد بوجوه ثلاثة:

الأول: بما فى حرف «يا» من الإيقاظ.

الثانى: وما فى حرف «أى» من التوسم.

الثالث: وما فى حرف «ها» من التنبيه.

فالخطاب هنا رمز إلى فوائد ثلاث تتمثل فى:

— مقابلة مشقة التكليف بلذة الخطاب.

وأن ترقى الإنسان من حضيض الغيبة إلى مقام الحضور إنما هو بواسطة العبادة، التى لا واسطة فيها بين العابد والمعبود ليس هذا فحسب كما يقول الإمام بديع الزمان النورسى بل إشارة إلى أن المخاطب مكلف بجهات ثلاث:

١ — باعتبار قلبه بالتسليم والانقياد.

٢ — وباعتبار عقله بالإيمان والتوحيد.

٣ — وبالنظر إلى قالبه بالعمل والعبادة[٣٦].

ومن هنا ارتبطت القضايا المراد تقريرها للإنسان بالوسيلة التى تنير له الطريق إلى الفطرة والتوحيد كما قال سعد الدين التفتازانى «أسباب العلم للخلق ثلاثة الحواس السليمة والخبر الصادق والعقل[٣٧].

فالسمع والبصر والفؤاد والعقل كل هؤلاء مع الخبر الصادق موضع الخطاب القرآنى، وهى مناط التكليف فى الدنيا والمسئولية فى الآخرة، فالبناء المادى والروحى للإنسان يتداخل بعضهما فى بعض، ولا تكمل

هوية الانسان إلا إذا تضامنت شخصيته فى البناء المادى والروحى، حيث يوجد قبول عقلى واطمئنان قلبى والتقاء مع الإرادة، وذلك هو كمال الشخصية وهو كمال الاعتقاد[٣٨].

وفى هذا المقام يقول الشهرستانى: «إن الله عز وجل أسس دينه على مثال خلقه»[٣٩] وهذا يعنى أن التوحيد يلتقى مع الانسان فى قواه المتعددة ويتعامل معها جميعا.

ومن هنا استخدم القرآن الكريم فى البيان لهذه القضية قضية التوحيد جميع المصابيح المؤدية إلى تثبيتها فى القلب والاذعان لها والرضا بها بالوسيلة المثبتة لها سواء بالعقل أو بالسمع أو بالتذكر.

قال تعالى: «وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء الأرض لآيات لقوم يعقلون»[٤٠].

وقال تعالى: «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا»[٤١].

كما يدلل القرآن الكريم بالأسلوب الوجدانى والعاطفى فيثير من الإنسان وجدانه ويحرك عاطفته نحو عقيدة التوحيد قال تعالى: «الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون»[٤٢].

كما يدلل القرآن الكريم على بيان قضية التوحيد بالنظر فى ملكوت الله تبارك وتعالى حتى تكون حواس الإنسان كلها مستغرقة فى آياته وآلائه ليتخذ الإنسان من ذلك الدليل الواقع تحت حسه وسمعه وبصره البرهان

اليقينى على كمال قدرة الله ووحدانيته وذلك بمثل قوله تعالى «وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون»(٤٣) ثم يأتى التذكير كثمرة لهذا الترابط والتكامل بين ما سمعه الانسان وأبصره وما أدركه بعقله ووجدانه المتصل بالقلب.

ومن هنا ربط الحق تبارك وتعالى بين هذه النوافذ الموصلة إلى طريق الفطرة والتوحيد قال تعالى: «والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون»(٤٤)، وفى هذا المقام يقول الإمام ابن القيم: فالتبصرة التعقل. والتذكرة التذكر، والفكر باب ذلك كله ومدخله. فإذا فكر الإنسان تبصر، وإذا تبصر تذكر»(٤٥) فبعد ان عدد الخالق وسائل الإدراك التى منحها للمخلوق رتب على ذلك النتيجة التى هى «لعلكم تشكرون». ولذلك استوجب هذا الربط أن يشكر الإنسان خالقه لأن الشكر يوصل الإنسان إلى خضوع قلبه والتعبد لله تبارك وتعالى.

ومما هو جدير بالتنبيه إليه، أن الهدف الرئيسى للقرآن الكريم يكمن فى ايقاظ شعور الإنسان ليدرك ما بينه وبين الخالق وبين الكون من علاقات متعددة، كما يقول العلامة محمد اقبال(٤٦). وبهذا تتضح قيمة المنهج القرآنى الذى قامت عليه رسائل النور وأنها لم تنح نحو القضايا المجردة الجامدة، بل اشتقت من الواقع الطبيعى والنفسى والعقلى والكونى أساسا لهذا البناء القائم على الفطرة والتوحيد.

وفى هذا المقام يقول الإمام بديع الزمان «إن الإيمان بالوحدانية وبقدرة الفرد الواحد الأحد المطلقة هو وحده الكفيل بإحلال الطمأنينة والسكون فى تلك الرغبات المتأججة لدى الإنسان»(٤٧).

ومن خلال هذه السطور نقف على تكامل الرؤية بين كل من الإمام ابن القيم والعلامة محمد اقبال والإمام بديع الزمان سعيد النورسى.

والمتأمل فى كتاب الله المقروء القرآن الكريم — باعتباره آخر الكتب

السماوية التى أنزلها الله سبحانه وتعالى على رسله وأنبيائه يقف على وحدة الأديان السماوية فى أصل الاعتقاد كما تبين فيما سبق وأنها تتمثل فى المصابيح الإيمانية التالية:

١ — توحيد الله سبحانه وتعالى وتفرده بالخلق (لا شريك له).

٢ — توحيد الله سبحانه وتعالى فى العبادة (لا معبود بحق سواه).

٣ — نفى مماثلة المخلوقات له فى الذات والصفات والأفعال(٤٨).

ومن هنا تلتقى فطرة الخلق فى منهج الخالق مع الفطرة الإنسانية والفطرة الكونية بالاستمداد من وحدة الخالق الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد.

وإذا انتقلنا إلى العلامة والحجة الثالثة من الدلائل والحجج الدالة على تحقيق الوحدانية والتوحيد كما هى فى البيان الذى أقامه الإمام بديع الزمان سعيد النورسى والتى تشير إليها — له الملك وله الحمد — وجدنا فيضا من علامات التوحيد التى لا تعد ولا تحصى.

نعم، إن فى وجه كل شىء كليا كان أم جزئيا، ابتداء من الذرات إلى السيارات، علامة توحيد واضحة جلية كوضوح جلوة الشمس فى المرآة ودلالتها على الشمس نفسها. فمرآة تلك العلامة الموضوعة على كل شىء أيضا تشير إشارة ساطعة مثلها إلى منور الأزل والأبد، وتشهد على وحدانيته، وحيث إن أكثر تلك العلامات غير المحدودة قد وضحت توضيحا مفصلا فى «سراج النور». لذا نكتفى هنا بالإشارة إلى ثلاث منها فقط:

— فعلى وجه الكون نشاهد علامة واسعة للتوحيد، مركبة من التعاون والتساند والتشابه والتداخل التى تبينه الأنواع فيما بينها، كل تجاه الآخر.

— وعلى وجه الأرض نشاهد علامة توحيد واضحة موضوعة على جيش سبحانى مركب من كافة طوائف الحيوانات، وذلك بمنح أرزاقها المختلفة واسلحتها المتباينة وألبستها المتنوعة وتعليماتها المتمايزة ورخصها المتغايرة، تمنح كلاً منها دون نسيان أحد وبلا خطأ وفى غاية الانتظام وفى الوقت المناسب.

— وعلى وجه الانسان نشاهد علامة وحدانية بينها وجود العلامات الفارقة فى وجه كل انسان بحيث تميزه عن جميع الوجوه الأخرى فى الأرض كافة.

بل نشاهد على وجه كل مصنوع جزئيا كان أم كليا علامة توحيد ونشاهد على رأس كل مخلوق كبيراً كان أم صغيراً، قليلا كان أم كثيراً، ختم الأحدية ولا سيما العلامات الموضوعة على الكائنات الحية فهى علامات ساطعة لامعة. ليس هذا فحسب بل إن كل كائن حى هو نفسه علامة توحيد، وختم وحدانية وطابع أحدية »[٤٩]. بما فيه من منح وآلاء ظاهرة وباطنة.

وهنا يضع الإمام بديع الزمان سعيد النورسى بثاقب فكره وقوة حجته ثمرات التوحيد وأنها تتمثل فيما يلى:

— الثمرة الأولى: الجمال الإلهى والكمال الربانى إنما يظهران بالتوحيد.

— الثمرة الثانية: أن مزايا الكون تتحقق بالتوحيد.

— الثمرة الثالثة: أن سجايا الإنسان وماهيته تظهر بالتوحيد[٥٠].

ومن هنا يتضح اهتمام الإمام بديع الزمان النورسى بحقيقة التوحيد الذى دعا إليه القرآن الكريم لتجلية الحقائق الإيمانية كما هى فى

الفطرة الإنسانية وأن عناصر هذه المملكة مواد منتشرة فى جميع أرجائها فمالكها إذن واحد يملك ما فى المملكة كلها، كذلك المصنوعات المنتشرة فى أرجاء المملكة لأنها متشابهة تظهر علامة واحدة وناموساً واحداً، فجميعها إذن تدل على ذلك الواحد المهيمن على كل شىء »[٥١]، كما يقول بديع الزمان فى مؤلفه مرشد أهل القرآن إلى حقائق الايمان « إن التوحيد التصديقى غير التوحيد التصورى. وإن التوحيد الحقيقى الذى نبحث عنه ونتحراه، ليس هو معرفة قائمة على تصور فكرى بل هو تصديق قائم على علم نابع من البراهين وهو أرفع من التصور كما هو فى علم المنطق.

فالتوحيد الحقيقى إذا حكم وتصديق وإذعان وقبول ليس هذا فحسب بل يجد المرء مالكه بكل شىء. ويبصر طريقاً إلى ربه الجليل ولا يحوله شىء عن سكينة قلبه واطمئنانه إلى ربه »[٥٢].

ولذا يسوق الإمام بديع الزمان الاستدلال القائم على الشمول بمختلف الطرق التى سلكها الفلاسفة والمتكلمون فى موضع واحد من كتاب الله تبارك وتعالى لبيان البراهين التى تناولتها أقلام هؤلاء وأولئك فى موضع من كتاب الله وذلك فى قول الله تعالى: « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون. الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون »[٥٣].

فالعبادة هى التى ترسخ العقائد وتصيرها حالا وملكة إذ الأمور الوجدانية والعقلية إن لم تنمها وتربطها العبادة — التى هى امتثال الأوامر واجتناب النواهى — تكن آثارها وتأثيراتها ضعيفة. والمتأمل فى هاتين الآيتين يقف على أن النداء الإلهى بدأ أولا بإثبات الصانع،

وتوحيده ، ويمكن هذا البيان فى خمسة أنواع من البراهين تتمثل فيما يلى : —

أولها: أنه استدل على التوحيد بأنفسهم وإليه الإشارة بقوله : «اعبدوا ربكم الذى خلقكم » .

وثانيها : بالبيان لأحوال آبائهم وأجدادهم وإليه الإشارة بقوله : « والذين من قبلكم » .

وثالثها : بالبيان لأحوال أهل الأرض عامة وإليه الإشارة بقوله : « الذى جعل لكم الأرض فراشا » .

رابعها : بالبيان لأحوال أهل السماء وإليه الإشارة بقوله : « والسماء بناء » .

وخامسها: بالبيان للأحوال الطارئية المتعلقة بالسماء والأرض وإليه الإشارة بقوله « وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فإن السماء كالأب والأرض كالأم ينزل المطر من صلب السماء إلى رحم الأرض فيتولد منها أنواع النبات المختلفة الأشكال والطعوم كما هى فى العلامات السابقة .

ولما ذكر هذه الدلائل الخمسة رتب المطلوب عليها فقال : « فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون »(٥٤) .

ومن هنا تتضح لنا حقيقة البناء الذى أقام عليه الإمام بديع الزمان منهج رسائل النور فى التدليل على هذه القضية — قضية التوحيد — كما هى فى القرآن الكريم وأنها برهان له وترجمة معنوية نابعة من فيوضاته لإيقاظ منبهات الفطرة المؤدية إلى تثبيتها فى القلب والإذعان لها ، والرضا بها ، واستخدام كافة الجوارح فى طاعة الله تبارك وتعالى .

إن أجزاء النور قد ألجمت أعتى المعاندين الملحدين وأفحمتهم ، وأثبتت كالشمس وضوحا ما كان يظن بعيدا عن العقل من حقائق الفطرة والتوحيد كحقائق المعراج النبوى والحشر الجسمانى ... (٥٥) .

إن رسائل كليات النور لم تكن مجرد مجلدات من أوراق العقل الباردة أو حركة ذاتية تحمل وراءها أهدافاً غامضة ، بل كانت فى حقيقتها وكما قدمتها الكلمات والشعاعات ، والمكتوبات والإعجاز ثورة فكرية لإيقاظ منبهات الفطرة فى النفس من خلال البيان للوعى الإيمانى القائم على الفطرة والتوحيد فى واجهات فرق المغالاة والشطحات المتعنتة لمخالفة النفس واتباع الهوى ، وتعد هذه المصابيح بمثابة النور لكلياتها لانبثاقها من الوحى الإلهى .

وعلى هذا يتضح أن فائدة هذا العلم ، إثبات العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية التفصيلية . أو دفع شبه المعارضين لها أيضاً بواسطة الأدلة العقلية التى تدحض تلفيقات الخصم ليس هذا فحسب بل ينتقل بعقيدة الإنسان من مرتبة التقليد إلى درجات اليقين ، وأيضاً يقيم فى سجية الإنسان الإخلاص فى الخلق والسلوك ومراقبة الله فى السر والعلن كما بين ذلك عضد الدين الإيجى أثناء تناوله للفائدة المرجوة من هذا العلم وأنها تتمثل فى النقاط التالية :

١ — الترقى من حضيض التقليد إلى ذروة الإيقان، قال تعالى : يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير »(٥٦) .

٢ — إرشاد المسترشدين بإيضاح الحجة وإلزام المعاندين بإقامة الحجة والرد على المبتدعة والمنحرفين من أصحاب المذاهب الضالة .

٣ — حفظ قواعد الدين من أن تزلزلها شبه المبطلين .

٤ — أن تبنى عليه العلوم الشرعية فإنه أساسها وإليه يؤول أخذها واقتباسها .

٥ — صحة النية والاعتقاد . إذ بهما قبول الأعمال وغاية ذلك كله الفوز بسعادة الدارين »(٥٧) .

* * *

ولذا فعلم التوحيد من وجهة نظر — الإمام بديع الزمان النورسى — يطلعنا على مظهر من مظاهر قوة الله وعظمته ... كما يقول عن الإيمان فى المبحث الأول من الكلمة الثالثة والعشرين من مجموعة الكليات من كليات رسائل النور « نبين من آلاف محاسن الإيمان خمسة محاسن فقط فى خمس نقاط : —

الأول : أن الإنسان يسمو بنور الإيمان إلى أعلى عليين ، لأن الإيمان انتساب .

الثانية : أن الإيمان ينور الكائنات .

الثالثة : أن الإيمان نور وقوة .

الرابعة : أن الإيمان يجعل الإنسان إنساناً .

الخامسة : أن الإيمان يقتضى الدعاء »(٥٨) .

إن الإمام بديع الزمان سعيد النورسى فى إجابته عن دلائل التوحيد فى كتابه « محاكمات عقلية » يتناول المصابيح الإيمانية الآية الكريمة : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا »(٥٩) .

وهذا هو برهان التمانع والدليل الوافى والمنار الساطع على هذا المنهاج الشاهد على وحدانية الصانع ... بل تصريح بأن صانع هذا الكون الواحد واحد . وصيحة تتلو على الكل « وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد »(٦٠) .

وكل هذه البراهين تستمد غذاءها من كتاب الله المقروء كما هى فى كتاب الله المنظور الذى يتجلى فيه العرض القرآنى لقضايا علم أصول الدين بدليل الحكمة والعناية والإتقان والإعجاز والخلق والإمكان والحدوث .

ومن هنا أصبحت جميع العلوم الكونية والعقلية فى فكر بديع الزمان وسائل وألسنة تنطق بالوحدانية وتوافد تطل على الآخرة ، وبهذا يصدق نهج مجموعة رسائل كليات النور فى براهينها الإيمانية « كلما شاب الزمان فإن القرآن يزداد شبابا ونضارة أكثر »(٦١) .

هذا هو الإمام بديع الزمان سعيد النورسى فى جانب من أفكاره ، صحبناه وتأملنا مائدة معارفه ثم حاولنا أن نعرضه فى هذه المسألة كما هو واضح من خلال سطور هذا البحث .

ويجب أن يدرك القارىء أن قضية الألوهية فى الإسلام لها دخل فى الإنسان وفى الكون وفى الحياة بعامة . أى لها أثرها فى جميع قضايا الدنيا والآخرة التى هى الغاية المتوخاة من علم التوحيد .

وبعد هذا البيان المعرفى الشامل لحقيقة التوحيد فى فكر الإمام بديع الزمان كما هو فى رسائل كليات النور التى تقوم على تجلية الحقائق الإيمانية والعقائد الإسلامية التى تزود المؤمن بمفاتيح الوحى الالهى لتطهير الإنسان مما قد يبتلى به من إصابات سلوكية وانحرافات نفسية .

— أن رسائل كليات النور بيان تربوى متكامل كما يقول بديع الزمان لقد علمنا القرآن الكريم — أن التصديق القلبى بوجود الخالق جل وعلا بصفاته المقدسة وبأسمائه الحسنى ، مستند إلى شهادة الكون جميعا(٦٢) .

ولذا قامت رسائل النور على البيان القرآنى لعرض وتحليل حقيقة التوحيد من خلال الربط بين الشريعة الكونية والشريعة القرآنية .

كما أقامت الاستدلال الإيمانى بالربط بين أسباب العلم والمعرفة ومخلوقات الخالق المتعددة حتى أصبحت كل هذه المخلوقات المنشورة آيات تدل على الوحدانية والتوحيد .

كما انطلقت رسائل النور من البيان الإيمانى المنهج القرآنى فى تأسيس اليقين عن طريق الربط بين وسائل الإدراك والشريعة الفطرية من جانب والشريعة الكونية والطبيعية من جانب آخر ، وذلك عن طريق تجلية مفاتيح الفطرة والدعوة إلى إيقاظ الوعى الايمانى وربط المخلوق بخالقه عن طريق التكامل بين دائرة التكاليف الإيمانية والعملية ،

كما قامت رسائل كليات النور على الربط بين دوائر المسئولية المتمثلة فى الإلزام والمسئولية والجزاء من خلال النظر فى كتاب الله المقروء كما هى فى كتاب الله المنظور ، وأن الكتاب الأول أحكمت آياته عددا والكتاب الثانى ظل مفتوحا ليأخذ منه الإنسان الزاد الذى يوصله إلى خالقه نقيا طاهرا حتى تتحقق الغاية المتوخاة للتوحيد بالفوز والسعادة فى الدنيا والآخرة . كما قال الحكيم بديع الزمان سعيد النورسى «إن التوحيد يتجلى بالحياة فى هذه الكثرة» .

نعم أن تجليا من تجليات الوحدة يجعل الكثرة الكاثرة من الموجودات وجودا واحدا ، لأن الحياة تجعل الشىء الواحد مالكا لكل شىء . . . بينما كل الأشياء عند فاقد الحياة عدم»[٦٢] .

لقد انطلق بديع الزمان فى منهجه الإيمانى من فيض القرآن الى أعماق النفس والوجدان ليس هذا فحسب بل والآفاق المرئية والمدركة فى ترابط ينير الطريق للعقل ويريح القلب عبر نظرة واحدة فى جوانب المعرفة الكونية التى تشرف على الكائنات من خلال قول الله تعالى : الله نور السموات والأرض »[٦٣] .

وهذا المعنى يتكامل فى بناء المنهج مع ماقاله اقبال فى قصيدته — طلوع إسلام —

ومصدر فطرة الاسلام حقا وشرعته لكل العالمينا
اخاء يجمع الأمم اتحادا ويلتظم الخلائق أجمعينا
وفى التوحيد للأمم اتحادا وان تبنوا العلى متفرقينا
تجاذبت الكواكب فاستقرت ولولا الجاذبية ما بقينا[٦٤]

إن الحقيقة التى اختطها بديع الزمان فى بيانه الإيمانى لرسائل النور تقوم على اكتشاف وتجلية العلاقة المنهجية بين الوحى والكون وهى علاقة تداخل وتكامل منهجى تكشف عن شمول منهجية القرآن الكريم للكون وسننه وقوانين حركته ، كما أن فهم السنن الكونية والقوانين الطبيعية ومعرفتها تساعد على فهم واكتشاف قواعد منهجية القرآن الكريم المتسق مع الترتيب الالهى للكون وللانسان المستخلف فيه الذى يمثل كونا صغيرا ، ولذا يقول الحكيم بديع الزمان فى كليات رسائل النور بلسان الحال للانسان الذى هو الكون الصغير والذى من أجله كان القرآن كما قال شاعر باكستان بلسان المقال فى ختام قصيدته السابقة :

من لى بأوراق الشقيق أزفها
لثرى الشهيد وقبره المعطار
دمه يليق بغض ملتنا التى
مدت ظلال الأمن للأقطار
فهيا تنشر الزهر ابتهاجا
ونملأ ساحة الدنيا ورودا
وهيا نستمد كؤوس راح
تثير بسحر نشوتها الوجودا

نشق ستائر الأفلاك وثبا
ونسمو فوق هامتها صعودا
ونوسع هـذه الدنيا نضالا
لنخلق عالما حرا جديدا(٦٥)

كما يسوق الأدلة والبراهين التى تضع يد القارىء والناظر على هذا فيقول :

إن موجودات الكون كلها بأنواعها المختلفة تتعاون فيما بينها كتروس ودواليب معمل رائع يعمل بنظام دقيق جدا ، فتترابط أجزاؤها بعضها مع بعض ترابطا وثيقا ليس هذا فحسب بل ويسعى كل جزء لتكملة مهمة الآخر » .

فمثل هذا التعاون بين المخلوقات وهذا التساند وهذه الاستجابة وهذا السعى فى دوام المعاونة واسعاف الآخرين ، وهذا الترابط والاندماج بشكل وحدة متحدة الأجزاء فى الوجود كله تماما كما فى أعضاء جسم الإنسان التى لا يمكن فك بعضها عن بعض لشدة الترابط والاندماج فيما بينها .

وعلى هذا فالذى يمسك زمام عنصر واحد فى الوجود يلزم أن يكون زمام جميع العناصر بيده . وإلا فلا يمكنه السيطرة على ذلك العنصر الواحد .

وهكذا فإن ظاهرة التعاون والتجاوب والتساند الجارية على وجه الكون بين جميع أجزائه هى أسطع شعار وختم للتوحيد(٦٦) يقف عليه كل مكلف بمجرد النظر والاستقراء لأنظمة الكون وقوانين الحياة إلا عند فاقد الحياة .

إن موت بديع الزمان لم يكن نهاية مجدة وإنما ستظل رسائل النور ألسنة تنطق بالوحدانية ونوافذ تطل على الآخرة ادوام مصدرها القرآنى وكما قال : «إن رسائل النور درس قرآنى يوافق أفهام العصر(٦٧).

رحم الله الإمام بديع الزمان ونفعنا بعلمه حتى تظل آثاره منارة تضىء الطريق بنور التوحيد للسالكين فى دروب الحياة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

المراجـــع والهوامش

(١) سورة الحج الآية ٧٥

(٢) سورة الروم الآية ٣٠

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل ج٢ ص١٨١ وسنن البيهقى — كتاب الشهادات ج ٧ ص ١٩٢

(٤) بديع الزمان سعيد النورسى «مرشد أهل القرآن إلى حقائق الايمان» ص ٥٦ ، وراجع دكتور/أحمد عبد الرحيم السايح بحث بعنوان «الإمام سعيد النورسى وأثره فى ترسيخ الايمان» .

(٥) المرجع السابق .

(٦) المرجع السابق .

(٧) المرجع السابق .

(٨) سورة الإسراء الآية ٩

(٩) والرشح من رشح يرشح رشحا ورشحانا هو رشح الإناء المتخلخل الأجزاء . ويقال: رشحت الأم ولدها باللبن القليل إذا جعلته فى فيه شيئا بعد شيء حتى يقوى على المص .

والترشيح أيضا التربية والتهيئة للشيء ، ورشح للأمر ربى له وأهل . ويقال رشح الغيث النبات أى رباه والرشيح ما على وجه الأرض من النبات . راجع : ابن منظور — لسان العرب حـ٣ ص ١٦٤٨ و١٦٤٩ — ط : دار المعارف بمصر .

ويفهم من كلام النورسى أنه قال رشحات وهى جمع مؤنث لمفـــرد رشحة ولعله يقصد أن القيمة فى الفضائل الإسلاميه لها ما بعدها من تأثير فإذا اجتمعت القيم كان لذلك فضل كبير .

إن رسائل النور سلسلة قوية لمعانى إيمانية متعددة فى تناولها الكون المنظور كما هى فى الكون المقروء «القرآن الكريم» .

ولذا يبين بديع الزمان أن رسائل النور تمثل خلاصة مترشحة من هذا الكون . فالحياة كما يصورها معالم فكر وجدانى كونى النظرة يوضحها الكتاب المقروء بلسان المقال كما هى فى الكون المنظور بلسان الحال لإيقاظ الوعى الإيمانى الذى دعت إليه رسائل النور فهى خلاصة مترشحة من هذا الكون المتلو والمجلو ، وأن هذه الرسائل الإيمانية حقيقة ملهمة من كنز علم الحقيقة وترجمة معنوية نابعة من فيوضات القرآن الكريم وأنها تشبه أشعة الشمس فى إمتدادها إلى البصر فهى ليست انتشارا فقط وإنما إنتشار تشير إليه اللمعات والرشحات والشعاعات الوصول إلى الحقائق الإيمانية التى من فيضها توصل الامداد العلمى إلى الحقائق المنشورة فى الكون المسطور حتى ترى العقول المدركة الحقائق الايمانيـة كل على قدر إدراكه .

(١٠) بديع الزمان النورسى «مرشد أهل القرآن» ص ٦٧

(١١) بديع الزمان النورسى مجلد الكلمات ص ٣١٠

(١٢) المرجع السابق ص ٢١١

(١٣) المرجع نفسه ص ٧٨٢

(١٤) بديع الزمان مجلد المكتوبات ص ٢٩٨

(١٥) مرشد أهل القرآن ص ٣٧

(١٦) راجع : العلامة ابن خلدون المقدمة ص ٤٣٦ ط الرابعة ١٩٨١ م .

(١٧) راجع : ابن منظور لسان العرب مادة «وحد» جـ٦ ص ٤٧٨١ ط دار المعارف والقاموس المحيط جـ١ ص ٣٤٤ ط دار الفكر بالكويت .

وعلى ما تقدم يتضح أن المعبود إذا خصص فيكون هو الله تعالى ويكون هو المعبود بحق ، وأما إذا أطلق فيشمل كل معبود بحق أو بباطل فإذا جاءت معرفة بالألف واللام فهى تعنى الإله المعبود بحق .

راجع : تحفة المريد على جوهرة التوحيد ص ١٠ لشيخ الإسلام إبراهيم البيجورى .

(١٨) حاشية البيجورى على الجوهرة ص ٣٥ ط الأولى ١٣١٠ هـ .

(١٩) المرجع السابق .

(٢٠) دكتور / سامى عفيفى حجازى « مدخل لدراسة علم الكلام » ص ٣٧ ط الأولى ١٩٨٨ م .

(٢١) المرجع السابق .

(٢٢) بديع الزمان سعيد النورسى رسائل النور مجلد المكتوبات ص ٢٩٨

(٢٣) بديع الزمان سعيد النورسى محاكمات عقليه ص ١٤٤

(٢٤) المرجع السابق ص ١٤٨

(٢٥) بديع الزمان « مرشد أهل القرآن إلى حقائق الإيمان » ص ٦٨

(٢٦) « « « الشعاعات من كليات رسائل النور » ص ٣٥

(٢٧) المرجع السابق

(٢٨) بديع الزمان سعيد النورسى « حقيقة التوحيد » ص ١١٠

(٢٩) « « « « « مجلد المكتوبات » ص ٢٩٩

(٣٠) المرجع السابق

(٣١) بديع الزمان « حقيقة التوحيد » ص ١١٢

(٣٢) الإمام بديع الزمان المجموعة الكاملة لرسائل النور مجلد

الشعاعات ص ٣٥ ، هذه رؤية خاصة يراها النورسى وهى تدل فيما تدل على شمول علم الله عز وجل وسعة أفق الإعجاز القرآنى وكأن الإمام بديع الزمان يريد أن يوجه نظر الإنسان فى كل زمان ومكان إلى إستقراء الدليل الكونى بمنهج قرآنى يجمع فى هذا البيان بين الأدلة كلها متعاضدة ومتساندة ، وتمثل نظرة منطقية جامعة إلى الوجود كله وأنه صنعة الواحد الأحد فالنظر إلى الكون المترامى الأطراف من حيث تنظيماته المتلاحقة أو أنظمته المتناظرة ، وموازناته المتساندة أو تجاوب أطرافه المتخالفة وارتباط أجزائه المتناسبة ، ونسب التكوين فى الذرات ، وشمول تصرف القدرة فى الأنواع المتعددة ، وعدم تناهى خوارق صنعة الكائنات واتقانها ، والحكمة العامة المتضمنة للقصد والإرادة والاختيار وتجسيد العناية التامة بالكائنات وتبسيط الرحمة الشاملة بالمخلوقات وظهور إعجاز الحياة وما يرى على الكائنات من الرعاية والعناية ونزوع كل شىء إلى الكمال . وحدوث الكائنات قاطبة وتغيرها وافتقارها واحتياجاتها اللانهائية ، واطراد قانون الميلاد والوفاة المتجلى فى كل ذرة من ذرات الوجود وتسبيحات الكائنات المرئية وغير المرئية ومشاهدة الإمكان والكثرة والانفعال المستلزمة بالبداهة لمراتب الوجود والوحدة الفاعلة ...

كل ذلك وغيره من الكثير والكثير ، لهو دليل كونى استقرائى متكامل ومتساند على وجوب وجود الخالق المبدع والفاعل المختار والعليم الحكيم المتصف بالأسماء الحسنى المتجلية على آيات الأنفس والآفاق فى الوجود كله .

هذا من جانب ومن جانب آخر يبين بديع الزمان للإنسان فى كل زمان ومكان أن ما اكتشفه العلم الحديث هو أقل بكثير مما لم يستطع اكتشافه ، فآيات الله فى الكون لا يمكن أن تحصى أو تعد ، حتى أنه لو

قدر لبنى البشر أن تنكشف لهم جميع آيات الله فى الكون ثم جلسوا جميعا لتدوينها وقد تحولت أشجار الأرض إلى أقلام وأنهار العالم إلى حبر ومداد لما استطاعوا ذلك ، وهذا البيان تؤكده العناية الالهية كما فى قول الله تبارك وتعالى، ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله . « سورة لقمان الآية ٢٧ » وقوله تعالى : «قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا » سورة الكهف الآية ١٠

نعم ، نحن لا نستطيع أن نحصى آيات الله فى الكون .

ولكننا بهذا البيان نحاول أن نشير إلى بعض آياته فى آفاق الكون المتسع ، على سبيل الفرض ، تلك الآيات التى أشار إليها القرآن الكريم وفصل بعضها العلم الحديث مما يؤكد لنا أن عطاء الخالق للمخلوق كامل فى الكتاب المقروء كما هو فى الكتاب المنظور .

راجع : أ . د . سعد الدين السيد العقيدة الإسلامية جـ ١ ص ١٥٤ بتصرف يسير . وراجع : د . سامى حجازى الاستدلال القرآنى منهجه ومميزاته . بحث بحولية كلية أصول الدين جامعة الأزهر بطنطا .

وإن الكون كل غير منقطع حقيقة أو مرتبة فى العالم متصلة بغيرها عن الاستمداد والاستناد حيث ينشر الخالق نور معرفته ويبثها فى وجدان كل مخلوق من هاتين النافذتين: نافذة الاستمداد ونافذة الاستناد كما يقول بديع الزمان « فمهما أطبق للعقل جفنه ومهما أغمض عينه فعيون الوجدان مفتحة دائما » ،

راجع : كليات رسائل النور مجلد المثنوى العربى والنورسى متكلم العصر الحديث جـ ٦ ص ٤٣١: دكتور محسن عبدالحميد ص ١١٧ وما بعدها فى المرجع السابق » .

(٣٣) المرجع السابق .

(٣٤) الإمام بديع الزمان كليات رسائل النور مجلد اللمعات جـ ٣ ص ٥٤٦ وراجع « حقيقة التوحيد » أيضا ص ١١٣

(٣٥) الإمام بديع الزمان المرجع السابق .

(٣٦) سورة البقرة الآية ٢١ ، ٢٢

(٣٧) بديع الزمان « مجموعة رسائل النور » مجلد « إشارات الإعجاز فى مظان الإيجاز » ص ١٥٨

(٣٨) سعد الدين التفتازانى العقائد النسفية ص ١١ ط كراتشى باكستان .

(٣٩) دكتور / سامى حجازى « الاستدلال القرآنى منهجه ومميزاته »

(٤٠) الشهرستانى « الملل والنحل » تحقيق الدكتور « بدران » ص ٤٥ ط الإنجلو .

(٤١) سورة البقرة الآية ١٦٣ ، ١٦٤

(٤٢) « الأنبياء الآية ٢٢

(٤٣) « الرعد الآية ٢

(٤٤) « الذاريات الآية ٢٠ ، ٢١

(٤٥) « المؤمنون الآية ٧٨

(٤٦) الإمام ابن القيم « مفتاح دار السعادة » جـ ١ ص ٢١٤

(٤٧) العلامة محمد إقبال « تجديد الفكر الدينى » ص ١٥ بتصرف يسير .

(٤٨) الإمام بديع الزمان سعيد النورسى « حقيقة التوحيد » ص ١٢٧ ترجمة الأستاذ إحسان الصالحى .

(٤٩) فى العقيدة الإسلامية والأخلاق ص ١٢ ط ١٩٩٢ م .

أ . د . محيي الدين الصافي بالاشتراك مع لجنة من كلية أصول الدين القاهرة .

(٥٠) بديع الزمان ، مجموعة رسائل النور ، مجلد الشعاعات ص ٣٩

(٥١) بديع الزمان ، مجموعة رسائل النور ، مجلد الكلمات ص ٣١٨ وراجع ، حقيقة التوحيد » .

(٥٢) المرجع السابق .

(٥٣) بديع الزمان ، مرشد أهل القرآن إلى حقائق الإيمان ، ص ٣٨

(٥٤) سورة البقرة آية ٢١ ، ٢٢

(٥٥) راجع : « عجائب القرآن » للرازي بتحقيق عبد القادر أحمد عطا ص ٢٦ ط الأولى ١٩٨٢م حسان بالقاهرة وراجع المجموعة الكاملة للإمام بديع الزمان ، وراجع دكتور / عبد العزيز الدردير « التفسير الموضوعي » ص ٢٦ ط ١٩٨٢ م .

(٥٦) بديع الزمان ، مرشد أهل القرآن إلى حقائق الإيمان ، ص ٧٠

(٥٧) سورة المجادلة الآية ١١

(٥٨) الإمام عضد الدين الايجي ، كتاب المواقف ، ص ٨ وراجع التهانوي كشاف إصطلاحات العلوم والفنون ص ٢٣ وراجع الإمام الغزالي « المنقذ من الضلال » تحقيق الدكتور / عبد الحليم محمود ص ٩٠

(٥٩) بديع الزمان ، الكلمات ، ص ٣٤٨

(٦٠) سورة الأنبياء جزء من الآية ٢٢

(٦١) الأستاذ / إحسان قاسم الصالحي في مؤلفه « بديع الزمان سعيد النورسي » ص ٢١٩

(٦٢) المرجع السابق .

(٦٣) بديع الزمان ، مرشد أهل القرآن إلى حقائق الإيمان ، ص ٢٠ وراجع الإمام بديع الزمان سعيد النورسي « كليات رسائل النور » ج ١ ص ٨٤٤ مجلد الكلمات .

(٦٤) سورة النور الآية ٣٥

(٦٥) الدكتور / محمد إقبال « قصيدة طلوع إسلام » ترجمة الأستاذ / الصاوي علي شعلان .

(٦٦) المرجع السابق للدكتور / محمد إقبال .

(٦٧) حقيقة التوحيد للحكيم بديع الزمان ص ٧٥ ترجمة الأستاذ / إحسان قاسم الصالحي وراجع الأستاذ / محسن عبد الحميد ، النورسي الرائد الإسلامي الكبير ، ص ٥٠

(٦٨) الحكيم بديع الزمان سعيد النورسي « المرجع السابق ، ص ٨٩٧

* * *